

افتقار اللغات قاطبة

الى الاستعانة بالاشارات واللهجات

Nécessité des gestes dans la Conversation.

يستحيل ان نظفر على وجه المعمورة بانسان ينبعث للكلام هبة فلا يحتاج الى الاستعانة في تأدية اغراضه بحركات ، ولهجات باصوات متباينة الاجزاء ، صموذا وهبوطا ، وشدة ولينا ، للدلالة على النفي والاثبات ، والرفض والقبول ، والامر والنهي ، والسخط والرضى ، والجلد والجزع ، الى غير ذلك .

ولعل هذه الحالة ورثها البشر عن عهد كان يؤدي فيه مقاصده بالاشارات ، تصحبها اصوات غير هجائية أو هجائية احادية ثم ثنائية حتى بلغ الكمال في التعبير ؛ لكنهم كمال نسبي لا حقيقي ، اذ لو كان حقيقيا ، لاستطاع الانسان ان يعبر عن جميع مقاصده مستقنيا عن الاشارات واللهجات وهذا ما يخالفه الواقع .

فلو فرضنا ان انسانا كلف الاعراب عما يدور في خلده ، على شرط سكون جوارحه ، وهدوء عينيه ، وركوت اساريره ، واستمر حديثه بضع دقائق ، لوجدت علائم الضجر بادية على وجهه ، ولا يقتصر الضجر على المحدث بل يشارك فيه المصغون الى حديثه فيستفزههم الملل كما انه لا يطمئن الى حديثه في اماطة اللثام عن رغائبه كما يجب .

وهذا الافتقار يختلف باختلاف المواضيع ، فمنها ما يحتاج المحدث الى الاقتان فيه ، كأن يكون الموضوع خطايا ، أو تمثيلا ، يراد به حسن الوقع في النفوس ؛ فكم من رواية كرر تمثيلها فاستملحت تارة واستهجنحت تارة اخرى مع ان الالفاظ واحدة ؛ لكن الذي التى تلك الالفاظ في احدى المرات كلف امهر في اتقان الحركات والتقن في الاشارات معن القاها في المرة الاخرى .

إلا ان الاقتان في مثل هذا امر فضلة لان التأثير وحسن الوقع ليس من غايات الكلام المباشرة ، فان فقرات الرواية تفهم بمجرد القائلها ، سواء اتفنن فيها ، أم لم يتفنن ؛ بل الغاية المباشرة للكلام هي الاتهام لا غير .

فلنجعل موضوع بحثنا قضية الافهام فحسب ، بيد ان ذلك لا يعيننا على انتقاد اللغات من النعت بالافتقار .

« لا ترى أنك اذا قلت ، « ما اخذت ككل الدراهم » مثلا احتمل كلامك وجهين : أنك اخذت بعض الدراهم ، وأنك لم تأخذ منها شيئا . وتضطر في التعبير عن المقصد الاول الى اظهار شدة الارتباط بين الفعل والمفعول به ، بتعجيل النطق بالكاف بعد التاء ، وتضطر في التعبير عن المقصد الثاني الى احدث فترة لطيفة بينهما .

نعم ان الناطق ليفعل كل ذلك بسائق الفطرة دون الالتفات لسرها الخفي . ففي الفرض الاول اعتبر ان الجملة كانت في الاصل مثبتة ، ثم ادخل عليها حرف النفي ، اي ان اصل الكلام كان : « اخذت كل الدراهم » ثم سلط السلب عليه لاثام كليمته الاخذ ، فانقلبته جزئية فكانت تقوية الاتصال بين الفعل ومفعوله . إذنا بأنهما مقترنان من قبل ، اي قبل ادخال حرف النفي ، ولو لا ذلك ، لما انتقل ذهن السامع الى الفرض . وفي الفرض الثاني احدث فترة بين الفعل ومفعوله ، للدلالة على ان الفعل ، انما سلط على المفعول به بعد مصاحبته للسلب .

ومن هذا الباب قول الترك : « بر آما يدم » مثلا ، وذلك انهم قد يقرنون الكلمة بلفظة « بر » للدلالة على الوحدة ، وقد يقرنونها بها للدلالة على التكثير . فترجمة العبارة السابقة : « اتي اكلت تفاحة واحدة » أو « اكلت تفاحة » فاذا اراد المتكلم المعنى الاول نطق بالراء بازعاج كأنه يحاول مصابغة مدح انه أكل اكثر من ذلك ، واذا اراد المعنى الثاني نطق بها بهود . وسكون لانه لم يقصد بلفظة « بر » معناها الاصلي المستحق للاهتمام ، بل اتي بها لتكون امرا مرضيا كالسوين في اللغة العربية .

ولعل من دواعي اختراع البشر للموسيقى ، عجز اللغات عن ترجمة ما تفيض به العواطف ، مما لا يستطيع اللسان ترجمة اكثر ، اذ تكتظ الجوانح بما لا قبل لها به وتضطر الى نفث ما عندها طلبا للتخفيف عن النفس واذ لاتصادف نفسيها عند اللسان ، تنزع الى الالات التي يكمل اللسان عن مجاراتها ، من عود اخرس ، ووتر ابكم ، اذا اجتمعا كانا انصح ناطق .

محمود الملاح